

المعنا

الجزء الرابع

السنة الخامسة

مجلة اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية

١٣ رجب سنة ١٣٢٤

نيويورك — اول ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٦

فلسفة جمال الدين الافغاني

هل للافغاني فلسفة

قد يستغرب القارى قولنا ان لجمال الدين الافغاني فلسفة . لان العلماء لا يسمون الرجل فيلسوفاً الا اذا كان صاحب مذهب خاص مبني على العلم الطبيعي انفرده به واخرجه للناس وصدقه خاصتهم . ولكن العالم المتساوي تيودور غومبز الذي وضع في هذا العام كتاباً في (فلاسفة اليونان) قال انه يسمي فيلسوفاً كل رجل مفكر في الحياة وشؤونها وكان لفكرته قوة . ولذلك عدّ في جملة فلاسفة اليونان كثيرين من مفكرهم الذين يعدّون في الدرجة الثانية والثالثة بعد اساطين الدرجة الاولى . والافغاني رحمه الله لم يكن ذا مذهب فلسفي جديد يؤخذ منه ويؤثر عنه وانما كان طالب اصلاح ديني . ولكن القوة التي ابرزها من نفسه في مطالبته بهذا الاصلاح . والطريق الذي سلكه اليه . وتأثيره على الذين خلفوه وقرأوا عليه . وامداد امواج الحركة الفكرية التي دفعها في حياته الى هذا الوقت بعد مماته بقوة تلامذته وعميدهم الشيخ محمد عبده — كل هذه امور تجعل له في تاريخ المشرق الادبي (مكاناً سنياً . ووساداً مثنياً) كما يقول الهزاني . وتحدو بالفكر تفكيراً سطحياً ان يعدّه كما يقول كثيرون مصدر الحركة الاصلاحية الاسلامية الحديثة

خصلة لبني المشرق

ولبني المشرق خصلة مستقبحة وهي ما يسميه الافرنج (داء الاشخاص) نغني انهم يقدسون كل شخص يرتفع بجاهه او علمه او رئاسته ويمنون الهام لدى كل شيء يصدر عنه دون ان يفكروا بتحججه وتحقيقه . واذا خطر لاحد منهم ان يجراً على هذا الامر الصعب ويركب هذا المركب الخشن عدواً وعمله اعداءاً وتهجماً . ولا غرابة في هذا الاعتقاد لانه شيمة قوم شأوا في الذل والصغار وعبادة الامراء والرؤساء ونتيجة (التصورات الشرقية) المشهورة عند الافرنج بكونها تكرر الصغيرة وتضفر الكبيرة . او ان شئت فقل انها نتيجة ندرة (الرجال) اذ هم فاذا قام بينهم (رجل) غاروا عليه وضنوا به ضناً الشحيح بدرهمه . وهذه الخصلة لولا ما ينشأ عنها من تأخير سير العلم وعرقلة سبيل الارتقاء وخلط المبادئ غشاها بسمينها وصحيحها بباطلها لما كان لاحد ان يشكو منها

فغرضنا الآن في هذه المقالات كما اعلنا في الجزء الاول ان ننظر في الفلسفة (الافغانية) والعبدية (١) نظراً مجرداً بقطع النظر عما يجب علينا من الاحترام والمراعاة لرجلين كبيرين صرفا حياتهما في خدمة مبادئهما وبذلاً في هذا السبيل كل مرتخص . وغال حتى راحتها وحربتها في بعض الاحيان . ونحن نعيد هنا ما قلناه في الجزء الثاني من اننا قد نكون مخطين في حكمنا ولكن شفيعنا سلامة النية والرغبة في تمحيص وتحقيق مبادئ بتوقف عليها حياة ام المشرق ونحن في جملتها

كتب الافغاني وعقمه

ولو كان بحثنا في مجرد حياة جمال الدين واعماله لكان هذا البحث مما يشك في فائدته او صحته لان كل فريق يمكنه ان يؤول مبادئ صاحب الترجمة واعماله بحسب ما تقتضيه امياله . ولكن بحثنا هنا في مبادئ جمال الدين في كتبه . وقد قلنا كتبه ولا نظن انه ألف غير رسالته في (الرد على الدهريين) وهذا ما حمل مجلة المقتطف على ان تقول يوماً اذ سئلت لماذا لم تترجم جمال الدين الافغاني - انها لا تعرف شيئاً عنه لتبسط مبادئه وآراءه . وكانت لذلك العهد قد كلفت بهذه الترجمة الشيخ محمد عبده رحمه الله وكان يومئذ مستشاراً للحاكم المصرية تخلصاً من الخوض في امور قد تعود باللائمة عليها . ولكن الاستاذ اعذر يومئذ باعثلال صحته . ولعله كتب الترجمة التي نشرناها في الجزء السابق بعد

ذلك التاريخ . او انه كتبها قبله في حياة الافغاني كما يفهم من بعض عبارات وردت فيها ولكن كره ارشاد المقتطف اليها اما لتبدل رأيه في كثير مما ارتآه فيها او بمجاملة لوسط سياسي جديد كان رحمه الله بعدت نفسه لان يفوز بالقدح المعلى فيه لان روح تلك الترجمة كانت ضد السلطنة الانكليزية كما يتضح لمطالعها

فما نرويه ونستدل به في هذه الفصول على مبادئ الافغاني انما هو مأخوذ بلا شبهة من مبادئ الافغاني نفسه . والكلام كلامه الا الثوب العربي الجميل الذي نسجه له محمد عبده تليذه مترجم الرسالة التي نحن الان في صدها لان اصلها فارسي . وجدير بنا هنا ان نستغرب عقم الافغاني الذي لم يكتب سوى هذه الرسالة الصغيرة . لان من كان بهمة كهيمته . وحماسة كحماسه . واقدام على انهض الامم الاسلامية في الشرق كاقدامه . يستغرب منه ان يرضى بهذا العقم ولا يخطط في كتب مخصوصة الخطة التي كان قد رسمها للشرق في ذهنه . ولكن هذه الملاحظة تعيدنا الى القول السابق من ان الناس في الشرق يقيسون كبر الشخص وصغره بمقياس فاسد . فلو كان الافغاني في الغرب لما قعد عن ان يكتب في كل عام او عامين كتاباً يبرز فيه ما تحدث به نفسه ويجول في فكره من نتائج علمه واخباره . لان قيمة الانسان هناك (١) ما يحسنه ويبرزه من آثار القوة والنشاط والعلم النافع . والذي لا تبدو منه عندهم هذه القوة لا تدوم له شهرة ولا يعدونه مبرزاً

سوءال من هند للافغاني

لما انتشرت المدنية الانكليزية في اقطار الهند واقبل متأدبو الهنود من مسلمين وغير مسلمين على مطالعة كتب الانكيز العلمية والفلسفية كثريينهم عدد القائلين بصحة المبادئ الطبيعية وسموا انفسهم (طبيعيين) . وهذه الحالة لازمة عن دخول العلم الطبيعي الى البلاد وقد ظهرت آثارها في بلاد الشام ومصر ولم تنفرد الهند بها . وهي عبارة عن نزاع بين مبدأين . الاول مبدأ (العلم الحسي) الذي يقضي بان لا يسلم الانسان بشيء الا متى قام عليه برهان عقلي . والثاني مبدأ (الدين) وهو التصديق بالشئ وان لم يقم عليه دليل عقلي وهو ما يسمونه (التسليم) وان بين هذين المبدأين ما بين الارض والسماء فلما استشرى خطب الطبيعيين في الهند كتب احد ادباء الهند الى السيد جمال الدين

(١) لما كنا في مصر اعندنا عند الكلام عن الغرب ان نقول (هناك) اما والجامعة اصبحت تنتشر في الغرب فالواجب ان نقول (هنا) بعد الان

يستفتيه في مذهبهم . وكان ذلك في ١٩ محرم سنة ١٢٩٨ . ومما قاله في كتابه اليه « لا تخلو بلد او قسبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب «نيسري» ويظهر لنا ان من تعلق عليهم هذا اللقب بنمو عددهم علي امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين . ولقد سألت أكثر من لاقيت من هذه الطائفة ما حقيقة النيسرية وفي اي وقت كان ظهور النيسريين . وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا ان تقوم عاد المدنية ولا تعدو هذا القصد اولها مقاصد اخري . وهل طريقتهم تنافي اصول « الدين المطلق » او هي لا تعارضه بوجه ما . واي نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين في عالم المدنية والهيئة الاجتماعية الانسانية . فان كانت هذه الطريقة من النحل القديم فلم تم نشر بيننا ولم نعهد لها دعاء الا في هذه الاوقات . وان كانت جديدة فما الغاية من احداثها واي اثر يكون عن الاخذ بها » ولكن لم يفدني احد منهم عما سألت بجواب شافٍ كافٍ . ولهذا التمس من جنابكم العالي ان تشرحوا حقيقة النيسرية والنيسريين بتفصيل ينقع الغلة ويشفي العلة والسلام »

الاحتكاك

بين الغرب والشرق . المبدأ الحديث والمبدأ القديم
فيلسوف لم يذكر اسمه باللغة العربية

ويجمل للناظر نظراً سطحياً ان هذا السؤال كان عبارة عن استفتاء من السائل في نفع العلم الطبيعي او ضره . ولكن الناظر في اعماق الامور يرى ان هذا السؤال اهم من ذلك كثيراً . لانه كان نتيجة اول احتكاك بدا في العصر الحديث بين العلم والمدنية الاوروبية الحديثة من جهة والاديان الشرقية ومدنياتها القديمة من جهة اخرى . فالجواب عن هذا السؤال يشمل امرين عظيمين عليها يتوقف خراب الشرق او عماره . الاول علاقة العلم بالدين . وهذا الامر وان كان في اقصى درجات الاهمية للشرقيين لان مدنياتهم القديمة اكثرها ديني محض الا انه مع ذلك اقل اهمية من الامر الثاني الذي نبسطه هنا . كلنا نعرف الشرق لاننا ابنائوه . واذا انتقل الانسان منه الى وسط كالوسط الاميري والاوروبي مثلاً فانه يزداد علماً سر الخطاطه وضعفه . فكم من مرة ونحن في مصر قرأنا للسياح والسائحات الاوروبيين والاميركيين في الشرق انتقاداً مرّاً على اخلاق ابنائه . ولا نزال نذكر جواب احدهم وقد سئل ما الذي ادهشك في سياحتك في الشرق أكثر من كل امر فاجاب : الذي ادهشني وضحك له كثيراً جلوس الناس في النهار والليل في

القهاوي والامان العمومية بسكينة الفلاسفة وسذاجة الاطفال وهم يدخنون ويتحادثون
كان بلادهم اعز البلاد منالاً وكانهم انعم اهل الارض بالآ . واصلحهم حالاً . واوفرهم
مالاً . مع انهم هم وبلادهم على ما نعلم من الضعف والوهن والانحطاط . فهذا الجواب
الذي كوى به السائح الغربي احشاء الشرق كما بقولاذمجي جواب صحيح ينبش علة الشرق
من مدفنها ويذكرنا المبادئ التي يجب ادخالها اليه والجرائم التي يجب قتلها فيه

ولسنا نبحت هنا في علل المشرق لنفيض في هذا الموضوع بل بحثنا هنا في ان جواب
الافغاني على ذلك السؤال كان جواباً يقطع سبيل الارتقاء على امم المشرق الاسلامية
ويناقض مصلحة المدنية فيه ويحل عزائمها . سئل احد علماء الالمان بماذا ارتقت امتكم بعد
انحطاطها وقويت بعد ضعفها . فاجاب انها قويت وارتقت برجلين : بسمارك ونييتش (١) والناس
في الشرق يعرفون بسمارك جامع الامم الالمانية ومنشي وحدتها وصارع فرنسا في حرب السبعين .
ولكنهم لم يسمعوا اسم « نييتش » حتى الآن على ما نظن

وليس غرضنا في كلامنا هنا عن فيلسوف الالمان الاكبر ان نبسط مبادئه ونرجته
فاننا ارجأنا هذا الامر الى فرصة اخرى ريثما نفرغ من مطالعة اهم كتبه وجمع مبادئها التي
نشتغل بجمعها وغربلتها منذ سنتين . فكتمني الآن بان نقول ان فكر « نييتش » هو
الذي دفع المانيا ذلك الاندفاع في سبيل الرقي . وقد ظهر تاثير امكار نييتش في اكثر
فلاسفة المتأخرين انكليز وفرنسيين ومشاهير الكتاب العصريين في اوروبا واميركا فصاروا
يسمون « نييتشياً » كل كاتب تظهر في كتاباته آثار فكر فيلسوف الالمان . ولا نتعرض هنا
لمبادئه الدينية لانه تطرف بها تطرفاً قبيحاً لا نظنه صدر عن رجل عاقل قبله ولا بعده (٢)
فانه يسمى الاديان نسيج خرافات وترهات ويحمل على العاطفة الدينية حملة المجانين لسختها
وافنائها . وبودنا لو وقفنا على رأي الفيلسوف رنان بشبر العاطفة الدينية في اوروبا في مبادئ
هذا الفيلسوف . ومن اقواله في الدين انه هو الذي افسد العالم وافنى نشاط البشر وعوّدهم
الاحمول والكسل وانه لولا الدين لكان العالم اليوم ارقى منه الان . الى غير ذلك من
الاقوال الواهنة الصادرة عن طبيعة قوية شرسة لا تفهم ان العاطفة الدينية اي اتجاه المخلوق
نحو الخالق المجهول وتأمله في مبداء وحاله ومصيره امر مغروس في فطرة الانسان وطبيعته
ولكن اذا كانت مبادئه الدينية واهنة ضعيفة فمبادئه السسيولوجية غاية في المثانة .

(١) Nietzsche

(٢) نييتش توفي بعد ان جن

ونقول غاية في المثانة والغرض من قولنا هذا انها متينة عند الفلاسفة الماديين والرياليست لا الايدى باليست . وهي قائمة على دعامة واحدة « القوة والنشاط » (١) يجب على الانسان ان يكون قويا نشيطا . فكل ما يزيد قوته ونشاطه حسن صحيح وكل ما يضعف قوته ونشاطه باطل فبيح . يجب انما قوى الانسان العقلية والبدنية واعطاؤها مداها وكل ما يوقف نموها هذا باطل يجب تركه . نحن نريد اقوياء اصحاء اما الضعفاء والخاملون والكسالى فادفعوهم من طريقكم واذا اقتضى الامر تغييتهم من هذا الوجود فساعدوهم على هذا الغياب (٢)

والاسفاه . اننا لا نقول ان هذه المبادئ مبادئ . ككالية جدير بالانسان العاقل ان يتبعها ولكن نقول ان الشعب او الفرد الذي يريد الحياة في هذه الدنيا لا بد له من مراقبتها والاحتياط لها ثللا يدوسه اصحابها . لان الخرفان لا يعيشون في هذه الدنيا واذا عاشوا فيها فللسلخ وجز الصوف ودر اللبن . وهذه الامم الاوروبية مندفعة من كل جهات اوروبا واميركا مبادئ نيتش هذه تدوس في الشرق وغير الشرق كل ضعيف يعترض مسيرها . فمآذا يفعل تسليتنا الخرفاني في الشرق وسكينتنا الفلسفية وجمودنا البوذي وتأملنا الكونفوشيوشي وایماننا الاسلامي ورفقنا المسيحي - ماذا تفعل كل هذه الفضائل السلبية بمزاي الغريين الايجابية التي غرضها الاستيلاء على الارض (بالقوة والنشاط) عقليا وبدنيا بقطع النظر عن عاطفة النفس وقوتها الدينية

وان قيل ان الآلة المراد بث روح القوة والنشاط بها في نفوس امم المشرق الاسلامية ودفعها في طريق العمل كما اندفعت اليه امم المغرب مبادئ نيتش وغيره انما هي هذا الدين . اذ لا مؤثر فعال في الشرق مثله . فهذا الاعتراض مقبول عند المفكر في الامور تفكيراً سطحياً ولكنه مردود عند الناظر فيه بامعان . فانه اذا كان المقصود من تحميس الامم للدين جمعها بهذه الجامعة فبلوغ هذا الغرض امر ميسور . ولكن نريد ان نسأل ما هي الفوائد التي تنجم عن هذا التحميس وهذا الجمع . اننا لا نرى هناك الا فائدة واحدة وهي اتخاذ الجامعة الاسلامية آلة لمقاومة اوروبا ومقاومة سلبية . ونعني بالمقاومة السلبية مقاومة ترعج المقاوم (بفتح الواو) دون ان تبطل مقاصده وبالتالي دون ان تنفع المقاوم (بكسرهما) نفعا حقيقيا . فهي آلة للازعاج لا للفائدة . وازعاجها هذا يشمل الفريقين اي الخصمين

Force, energie (1)

(٢) كتاب نيتش (بدء الظلام عند الاصنام) يعني عند المعبودات

الا اذا وجدوراءها قوة حربية تنفذ المراد الحقيقي منها وهذا حلم و وهم في حالة العالم الحاضرة .
 اما القول بان الامم الاسلامية يمكنها باجتماعها حول لواء الدين ان تبلغ ما بلغت اليه
 الامم الغربية عند اخذها باصول العلم الطبيعي فقول من لا يعرف شيئاً من تاريخ العمران
 في الارض وطبيعة البشر فيها . فان هذا القول ينتج شرين . (الاول) تثبيط العزائم
 عن العلم الطبيعي الذي عليه بناء المدنية في هذا العصر . فيصبح الفرد اذا كان مؤمناً ايماناً
 حقيقياً مكثفياً بهذا الايمان عن كل شيء سواه لاعتقاده انه متى تمّ الايمان لشخص اقبلت
 عليه الدنيا بعد ذلك عفواً من تلقاء نفسها . فيصبح ويبيت قائلاً (الحمد لله اني مؤمن)
 ويرى نفسه كبيراً بهذا الايمان وان كان اصغر رجل في الدنيا . او اذا كان ممن اجنذبته
 مبادئ القناعة والرضى بالكفاف اكتفى بسداجنه القلبية وطهارة سيرته وسريته عن
 كل عمل وكل اقدام في الدنيا . ما الفائدة من هذا السعي اذا كانت الارزاق مقسمة
 بين الناس والحياة باطلة والدنيا زائلة . اذا فاته خيرات الارض فانه سيمتتع بخيرات
 الآخرة . فيا طبيعة البشر لله ما اجملك حين تكونين مخلصة طاهرة طاهرة حقيقة . ولكن
 هذا الجمال من سوء الحظ ينشئ الضعف في النفس بدل القوة والنشاط والحماسة المطلوب
 انشاؤها كما تقدم . بقي (الشر الثاني) وهو ينتج عادة عن اختلاف مشارب الناس باختلاف
 طبائعهم الوراثية وتربيتهم الخصوصية والعمومية وحوادث حياتهم . فانك بينا ترى الشعب
 مثلاً منصرفاً الى الدين بتلك المبادئ التي تقدم ذكرها باذلاً في سبيلها كل مرتخص وغال
 حتى حياته في بعض الاحيان ترى رؤساءه واكابرهم واصحاب الاثره فيه ورجال العمل
 الذين بنشأوا على مبادئ غير تلك المبادئ منصرفين عن الدين في الباطن وان كانوا
 مقبلين عليه في الظاهر وهمهم استخدام ذلك الشعب الذين المسكين في تحصيل ثروة لهم
 وخدمة مقاصدهم السياسية والدينية والاجتماعية . فهل تقوم امة هذه حالها

وان قيل ان المدنية الاسلامية القديمة جمعت بين « القوة » والدين معاً وأنشأت بها
 سلطنة واسعة وتمدتاً عظيماً فنحن لا ننكر انه يمكن الجمع بين الامرين ولكننا ننكر قيام امة
 وامتداد رواق عزها اذا كانت تجعل امورها الدينية مقدمة على امورها المدنية اي تجعل انماء العاطفة
 الدينية في النفس مقدماً على انماء نشاط الفرد وقواه العقلية والبدنية . اما الامم الاسلامية
 التي انشأت في ما غير مدنيات عظيمة فقد كانت مسوقة الى ذلك بامر من الاول حب
 الفتح لاكتساب الثروة والثاني نشر الدين بين الامم طوعاً او كرهاً بحق الجهاد . « فحب
 الفتح وحب الجهاد » كانا اعظم مثير للهمم واكبر شاحذ للعزائم . وكان مبادئ نيتش

كانت يومئذٍ تختل نفوس الامم الاسلامية من طريق ديني فيؤثر فيها الدين ما تؤثره اليوم مبادئ نيتش في اصحابها . ولكن في هذا الزمان وقد تغيرت الارض ومن عليها لا تؤثر السياسة الدينية في بني الشرق غير زيادة ضعفهم وحل عزائمهم بازاء الحيتان الهائلة المندفعة عليهم لابتلاعهم . فجواب الافغاني للسائل من الهند بان علماء الطبيعة ضلوا السبيل وبان الاصلاح لا يرجى الا بالدين جواب يؤخر تقدم الشرق لو كان لكلام الافغاني تأثير كلي عليه

جواب الافغاني

وانظر بماذا اجابه . انه مثلاً كان يقدر ان يقول له ما يلي او مثله . وهو قريب من الجواب الذي كان ابن رشد يجيب به خصومه « العلم الطبيعي من الامور المعقولة المحسوسة . والدين من الامور الالهية فلا تخلطوا هذا بذلك . استعملوا العلم الطبيعي في انماء قوة العقل والبدن والوقوف على اسرار الطبيعة وتقوية نفس الانسان وشحن عزائمه بنواميسها واصلاح الارض بقوتها . واستعملوا الدين لسلامة النفس من الادران . كل واحد من هذين العلمين « علم الطبيعة وعلم الدين » لازم لهذا المجتمع البشري . فيجب التوفيق بينهما لا تفريقهما . واذا رايتم في اهل العلم الطبيعي الذين تسمونهم « نيشريين » او في اهل الدين الذين تسمونهم ما تسمونهم به نقائص ورذائل وموبقات فهذه الصغائر تنشأ في طبائع اصحاب العلم واصحاب الدين « لا في العلم والدين » اذ مثل رجل العلم ورجل الدين مثل انا في ماء زلال . فاذا فسد الاناء وافسد الماء فما ذنب الماء »

ولكن الاستاذ جمال الدين رحمه الله لم يجب بمثل هذا الجواب بل اجاب جواباً آخر بدهش قارئه . فانه خلط متقدمي فلاسفة اليونان مثل ديموقراط وايقور ودوجينوس بعلماء العصر الحديث مثل دروين وفولثيرور وسو واندفع عليهم وعلى جميع من اشتغل بالعلم الطبيعي اندفاعاً ما كان يخطر لاحد ببال (١) فتصورنا حين قراءة ذلك الجواب المدهش

(١) اليك نتفأ مما قاله في جوابه « النيشراسم للطبيعة وطريقة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ومقصد ارباب هذه الطريقة محو الاديان ووضع اساس الاباحة والاشترك في الاموال والابضاع بين الناس عامة » قلنا وهذه التهم التي الصقها الافغاني بالطبيعيين لا يجهل صبيان المدارس

الافغاني رحمه الله طفلاً ثائراً في يده فأَسَّس يحاول بها ان يهدم اساس العلم الطبيعي لردة عن الشرق . ولكنه لا يؤثريه قطعياً

اسباب هذا الجواب

وبعد قراءة هذه الرسالة فكرنا طويلاً في الاسباب التي حملت الافغاني على هذه الحدة والشدة التي لم تجر العادة بصورها عن حكماء الزمان . فلاح لنا منها عدة اسباب
اولاً - ان الافغاني رحمه الله كتب رسالته هذه في الهند بعد اخراجه من مصر . وكان خصومه في مصر قد اتهموه بالكفر والزندقة والمروق من الدين لتحليله جزئيات كانوا يجرمونها . ولما كان طامحاً الى امامة المسلمين الكبرى في جميع الاقطار الف هذه الرسالة التي حمل بها على العلم الطبيعي تلك الحملة المنكرة تبرؤاً من تلك التهمة . ولو لم يكن هذا من اهم اغراضه في كتابة رسالته لما جعل هذه الاهمية لذلك السؤال الصغير الذي القاه عليه سائل من الهند . فان خصومه لم يكونوا فولتير وروسو ودروين وديموقراط وبيقور والطبيعيين بل كان خصومه وخصوم بيته وخصوم الشرق باسره المستعمرين الذين اكتسحوا المشرق وتسلطوا عليه

اليوم انها باطلة . وقال عن العلامة دروين « وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الاوهام ومهامه الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان وكأن ما اخذ به من الشبه الواهية الالهية يشغل بها نفسه عن آلام الخبرة وحسرات العماية » وقال في موضع آخر عن علماء الطبيعة « كانوا يظهرون في اوقات بدعوى السعي في تطهير الازنان من الخرافات وتنوير العقول بمحقائق المعلومات وتارات يمثّلون في صورة محبي الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب خير المساكين » وقال في صفحة اخرى « وضعوا مذاهبهم على بطلان الاديان كافة وعدوها اوهاماً باطلة ومجعولات وضعية » قلنا مع ان دروين وروسو وفولتير الذين حمل عليهم حملته المنكرة لم يكونوا لمحدثين فانهم كانوا يؤمنون بالله ايماناً مريحاً ظاهراً في كتبهم . ومنتهى الغرابة في قوله ان الفرنسيين كانوا شعباً عظيماً حتى ظهر فيهم فولتير وروسو « يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بانارة الافكار وهداية العقول فنبشوا قبر ابيقور الكلي واحياء ما يلي من عظام الناتور اليسم » « الدهر بين » ونهذا كل تكليف ديني وغرسا بزور الاباحة والاشتراك وزعما ان الآداب الالهية جعلت خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات احدثها نقص العقل الانساني وجهر كل منها بانكار الالهية ورفع

ثانياً - ان المستعمرين الاوروبيين في دخولهم الى الشرق لامتلاكه وتعبيره انما يحملون بين ايديهم شعلة العلم الطبيعي الذي يصلحون به الارض فيحفرون الترع وينشئون الجسور والسكك الحديدية ويننون المنازل الفاخرة ويجلبون البضائع النفيسة وقيمون المعامل النافعة . وغني عن البيان ان هذه النعم العديدة التي لا ينكرها الا « كل مكابر ولحق مدابر » كما كان يقول محمد عبده من مزاياها ان تجتذب اليها والى اصحابها الناس الذين انتفعوا بها ونخص منهم الناشئة الجديدة التي تكره وهي في اول عمرها الوقوف والجمود الذي اعناده الناس في الشرق ولذلك نتمسك للاصلاحات الاجتماعية النافعة تحمساً شديداً . وظاهر بذاته ان المتأدبين من ابناء الهند وفارس وافغانستان الذين ادهشهم اصلاحات المدنية الغربية الداخلة عليهم بدءوا يميلون الى المبادئ الغربية . ومتى مالوا اليها ميلاً تاماً زالت او نقصت سلطة ائمتهم عليهم . فاصبح من مصلحة هؤلاء الائمة ان يبرهنوا لهم ان هذه المدنية الغربية كلاشيء وان النهضة الحقيقية التي ترحى لهم انما تكون

كل عقيرته بالتشجيع على الانبياء » قلنا من العجب ان يجهل السيد الافغاني التاريخ الى هذا الحد فاولاً ان الشعب الفرنسي بعد الثورة اسىء بعد فولتير وروسو كان اعظم واقوى من قبلها لانه على زمن نابوليون الاول بلغ اوج العظمة والسيادة . وثانياً ان ما نسبته الى فولتير وروسو يدل على ان الاستاذ الافغاني سمع مبادئها ولم يقرأ كتاباً لها لان الاثنين يوءمنان بالله ايماناً جبراً به في كل صفحة من كتبهما « وفولتير ييثان مشهوران باللغة الفرنسية وقد ترجمهما صاحب الجامعة لما كان في صباه ينظم شعراً ترجمة حرفية في يثين هما على ما نظر اول واخر شعر ينشر له في الجامعة واليك البيتين

يحار عقلي بهذا الكون حيرته بساعة في رمال القفر ملقاة
فها نصدق منا قول من زعموا بانها وجدت من دون ساعاتي

وزد على ذلك ان روسو كان في زمنه الخصم الاكبر والعدو الالذ للماديين الفرنسيين وله مناظرات شديدة معهم وهم معروفون بفرسا بالانيسكلوبيديين . فما كان يخطر لنا ببال ان رجلاً كالافغاني رحمه الله يرمي الكلام على علاته هذا الرمي وينسب ما نسبته الى اناس ضحوا مثله راحتهم وقواهم وحريتهم في سبيل خدمة بني الانسان في الارض . ومنتهى الاعجاز في قوله « لا جرم ان مزاج الانسان الكبير » يعني عموم النوع « بما اودع الله فيه من الشعور النظري وهو اثر الحكمة الالهية المامة بيج هؤلاء الخونة ولا يحتمل وجودهم في باطنه فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة ! او الذنابة من النخر او النجاسة من الصدر »

على ايدي ائمتهم . فقد يمكن ان تكون رسالة جمال الدين صوتاً صارخاً بالهنود والاييرانيين والافغانين وربما الانراك والمصريين ايضاً لتفهمهم ان الاصلاح الذي يأتي على يد السيد جمال الدين خير من الاصلاح الداخل على ايدي الانكليز

ثالثاً - لا نتعرض لعقيدة السيد جمال الدين لاننا لا نعرف شيئاً عنها . وتكفيها شهادة الاستاذ ثليذه ورفيقه الشيخ محمد عبده بانها « كانت صحيحة » وما رماه به خصومه يوم كان في الاستانة من انه قال في خطبة القاها « ان النبوة صنعة كباقي الصنائع » انما هو سلاح يجارب به الخصوم خصومهم حين تقصر الحجة . وكذلك ما رماه به بعضهم في مصر من الكفر لا يصح ان يُتخذ دليلاً على حقيقة عقيدته لانه من ذاك القبيل . ولكننا نلاحظ هنا ملاحظة لا نخرج عن ذكرها وهي تشمل جميع الاديان الحية الان . فان المستنيرين في كل امة وكل دين عند نظرهم في امور دينهم يجدون فيها اشياء بؤد و لو انها لم توجد ويدعون الى غض النظر عنها . اي انهم يعتقدون في اعماق انفسهم - في اماكن لا يخرج منها راي لاحد ولا يدخل اليها راي احد - بصحة بعض المبادئ و بعدم صحة بعضها . ومتى وقع هذا الفصل والتفريق بين مبادئ الدين كان وقوعه بمنزلة وقوع الشك في الدين نفسه . ومتى وقع شيء من هذا لرجل عاقل صناعته النظر في شؤون الناس والتفكير والبحث لهم فانه يحنط للدين في نفسه ونفوس سامعيه وقارئيه خطة جديدة فيدعو حينئذ الى « نفع » الدين لا الى « صحته » اي انه يبني الدين على مبدا « النفعيين » فيبحث في آثاره وفوائده لا في مبادئه وقواعده . وآثار هذا القصد ظاهرة في رسالة الافغاني رحمه الله . فانه في كل صفحة تقريباً يقول « لا رية في ان الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي » « لن يستحكم اساس للتمدن بدون الدين البتة » ونحن لا ننظر هنا في ما يعود من الضرر على الدين نفسه بجعله « نفعياً » فان مبدا « النفعيين » الذين يحملون « النفع » قاعدة كل مبدا ومقياسه لهو مبدا مردود عند الفلاسفة الايدياليست الذين يعتقدون بوجود « الخير بذاته » و « الادب بذاته » بصرف النظر عن منافع الناس بل عن وجودهم نفسه . فانهم يقولون ان الخير بذاته والادب بذاته موجودان ثابتان وان لم يوجد في الارض انسان . واذا اضمحلت الكرة الارضية غداً ونشأ منها بعد اضمحلالها كرة جديدة وعاش عليها بشر من جديد فان الخير بذاته والادب بذاته يثبتان في هذا المجتمع البشري الجديد كما كانا قبل اضمحلال الارض . هذا مبدا القائلين بوجود الخير بذاته والادب بذاته وهو يناقض كل المناقضة مبدا النفعيين الذين يعلقون المادى على نفعها لا على

صحتها. والدين متى تدهور في "هاوية النفع" فانه يغيب فيها ولا يعود يخرج منها. فاذا نفع سنة او جيلاً او نصف قرن او قرناً كان نفعه هذا بمثابة خروج دمه من جسمه ولا يعقب هذا الخروج حياة. فالدعوة الى "نفع الدين" دعوة تقتل الدين غداً وان انتفع به اليوم. وهنا نصل الى المقصود من هذه الشذرة فاننا نغفل الى الترجيع بان السيد الافغاني رحمه الله كان مخلصاً في دعوته هذه ونعتقد انه اذا لم يكن مخلصاً فيها كلها فلا شك انه كان مخلصاً في نصفها مثلاً انه حين يدعو هذه الدعوة الشديدة الى الدين الاسلامي ويذكر امراء الشرق بسابق مجدهم وعزمهم قد يكون غرضه جمع كلمتهم وتاليف قلوبهم على المستعمرين الداخلين عليهم فهو معذور في اتخاذ الدين آلة سياسية لجمع الشرق على الهاجرين عليه الطامحين اليه ولكن اذا لم يكن مخلصاً في دعوته من هذا الوجه فانه مخلص فيها من وجه آخر

ان السيد الافغاني ربي في بيت الامارة وعاش في وسط طبيعة عظيمة حرّاً متعوذاً السيادة. وهو فوق ذلك ذو طبيعة متحمسة شديدة. قال مترجمه الشيخ محمد عبده "فارق الاستانة مظلوماً في حقه مغلوباً لحدته" وقال في موضع آخر "طموح الى مقصده اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه وكثيراً ما كان التجمل علة الحرمان" فلما ساح الافغاني في اوربا وشاهد فرنسا وانكلترا لم تقته المقابلة بين حالة الغريين وحالة بلاده فانه رأى في الغرب ازدهار المنازل وقذارة احياء العملة واكدرار الجو بالبخار والدخان والضباب وشاهد قوماً يصارعون العناصر والطبيعة طول النهار في ركضون ويعملون ويتعبون في بناء اعظم مدينة قامت في الكرة الارضية. شاهد علماء وساسة وكليات ومجالس شورى ومتاحف ومكاتب ومصانع ومزارع وجرائد وملاهي. وشعباً كنجوم السماء يدور حولها ويعيش منها وبها. ثم التفت فماذا رأى؟ رأى ان الرذائل التي تركها في قبائل افغانستان والهند وايران فاشية في قلب تلك المدينة الراقية العظيمة. ابصر القتل والسرقة والغش والعدوان والظلم والغدر والطمع والقسوة الخ... بل رأى منها في قلب المدينة العظيمة ما لم ير مثله في القبائل الضعيفة العائشة في سذاجة الطبيعة. فقال في نفسه حينئذ ان هؤلاء الناس يتعبون في بقاء المدينة على غير هدى. وكان رحمه الله يعيش بالفكر من اجل الفكر كجميع المتحمسين الايدياليست. والدهر وان اناخ عليه بكل كلكه وكواه بنار اخباراته لم يجعله «نفعياً محضاً» ويصرف فكره الى الفوائد العملية بدل الفوائد النظرية. فعاد من اوربا وصاح بقومه في هذه الرسالة تلك الصيحة يقصد بها تفهيم اهل الشرق ان

مدنيتهم المبنية على الدين خير من مدينة اوربا المبنية على لا دين . فهو مخلص ولا شك في صياحه هذا . ولكن هذا الحكم في رابنا حكم سطحي لان جميع المدنيات الدينية التي قامت في الارض قبل الاسلام وبعده لم تخلُ في اي زمن من ازمانها من تلك الرذائل والموبقات التي تحقق الشكوى منها . فليست الرذائل والموبقات في المدينة ولا في الدين ولكن في الطبيعة البشرية الضعيفة . ولم يثبت حتى الان ان الدين في اي زمن من الازمان قدر على استئصالها الا في بعض خواص الناس . والمدينة الحقيقية تفعل مثل هذا الفعل في الخواص ايضاً . فالاصلاح الديني والاصلاح المدني في الارض لا يثمران الثمر المطلوب اي لا ينشئان انسانية صالحة جديدة الا بعد « اصلاح اجتماعي عام » يحو الفقر والظلم والجهل من بين الانام . وهذا عمل علمي اجتماعي سياسي لا عمل ديني

هذا ما نقوله في الاسباب التي حملت الافغاني على كتابة رسالته . ويرى القاري منها اننا بدأنا في الدخول في لباب الموضوع والزول الى اعماقه . وسنشرع في الجزء التالي في تلخيص هذه الرسالة تلخيصاً يدل على قوتها وضعفها . وسنرى حين المقارنة بين الافغاني وتليذه محمد عبده ان التلميذ كان خيراً من استاذه من عدة وجوه

التلغراف اللاسلكي

وزيارة سوري له في بلدة برنت روك ماس (١)

﴿ لطف الاستاذ فيسندين ﴾ اسعدني الحظ وقادني الاتفاق الى بلدة برنت روك ماس التي فيها ادارة التلغراف اللاسلكي . فقصدت مكان الادارة ولما هممت بالدخول وجدت على الباب كتابة خلاصتها (ان الدخول ممنوع لغير المأمورين) فاسفت لذلك كثيراً وعدت خائباً . وفيما انا اقلب طرفي في عمود

(١) كانت الجامعة فيما نظن اول من سمي « التلغراف بلاسلك » « لاسلكي » قياساً على « اللانهاية » و « اللاأدرية » وذلك في مقالة عنوانها « افريقيا والمسيو هانتوتو » في سنتها الرابعة . ويظهر ان الكتاب اصطلحوا اليوم على هذه التسمية